فى رسالة الغفران لأبى العلاء

بقلم

السباعى بيومى الأستاذ بدار العلوم

— ١ —

تمهيد

كان يعيش بمدينة حلب فى أخريات القرن الرابع الهجرى وأوائل الخامس ، رجل تأدب بأدب أهلها هو أبو الحسن على بن منصور القارح بن طالب الحلبى ، وقد درس فى المدينة المذكورة على علمائها كابن خالويه ، وعلى أدبائها كأبى الحسن المغربى ، وفى شبيبته ارتحل عنها إلى بغداد فدرس على أبى على الفارسى وأبى سعيد السيرافى وعلى بن عيسى الرمانى وأبى عبد الله المرزبانى وأبى حفص الكتانى ، ولما استوعب ما عندهم وعلم سفر أبى الحسن المغربى المذكور إلى مصر شخص اليه فيها فدارسه زماناً ثم خرج منها إلى الحجاز حاجا ، ولكنه أقام فى تلك الأماكن المقدسة خمس سنين عاد بعدها إلى مصر ، فلم يزل بها حتى قتل أبو الحسن المغربى على يد الحاكم الفاطمى سنة ٣٩٧ ، وهرب ابنه أبو القاسم المغربى إلى ميافارقين على الفرات فهرب معه .

ولما كان أبو القاسم المذكور كثير التنقل بين مدن تلك الأصقاع ، كثر تنقل ابن القارح معه ، وصادف أن تعرف فى مدينة آمد بأبى الفرج الزهرجى فأعجب أبو الفرج بعلمه وأدبه ، وكان أبو العلاء إذ ذاك قد طبقت شهرته العلمية الأدبية وصيته

الحر الفلسفى الآفاق ، وعزم ابن القارح على قصده فى معرته فحمله أبو الفرج هذا الى أبى العلاء رسالة إعجاب منه بمكانته تلك ، وأخرى لابن القارح بمثل ذلك ، غير أن سوء الحظ أو حسنه لا ندرى ، جعل عاديا يعدو على رحل ابن القارح بالسرقة وفيه الرسالتان ، فأنشأ ابن القارح الى أبى العلاء رسالة منه اليه بديلا من رسالة الزهرجى فى موضوعها ، قال فيما قال من تصديرها بعد الاستفتاح : —

كتابى أطال الله بقاء مولانا الشيخ الجليل ومد مدته وأدام كفايته وسعادته ، وجعلنى فداءه وقدمنى قبله على الصحة والحقيقة وعمد القصد والعقيدة ، وليس على مجاز اللفظ ومجرى الكتابة ولا على تنقص وخلابه وتحبب ومساحه ، ولا كما قال بعضهم وقد عاد صديقا له « كيف تجدك جعلنى الله فداك » وهو يقصد تحيبا ويريد تملقا ، ويظن أنه قد أسدى جميلا يشكره صاحبه إن نهض واستقل ويكافئه عليه إن أفاق وأبل ، عن سلامة تمامها بحضور حضرته وعافية نظامها بالتشرف بشريف عزته وميمون نقيبته وطلعته ، ويعلم الله الكريم تقدست أسماؤه . أنى لو حننت اليه أدام الله تأييده حنين الواله الى بكرها وذات الفرخ الى وكرها . أو الحمامة الى الفها أو الغزالة الى خشفها ، لكان ذلك مما تغيره الليالى والايام والعصور والأعوام لكنه حنين الظمآن الى الماء ، والخائف الى الامن . والسليم الى السلامة ، والغريق الى النجاة والقلق الى السكون ، بل حنين نفسه النفيسة الى الحمد والمجد . فانى رأيت نزاعها اليهما نزاع الاستقصات الى عناصرها والاركان الى جواهرها . فان وهب الله فى ملا من العمر أن يؤنسنى برؤيته ويعلقنى بحبل مودته ، صرت كسارى الليل ألقى عصاه وأحمد ممراه ، وقر عينا ونعم بالا ، وكان كمن لم يمسه سوء . ولم يتخوفه عدو ولا نهكه رواح ولا غدو . وعسى الله أن يمن بذلك بيومه أو بثانيه وبه الثقة . وأنا أسأل الله على التدانى والنوى والبعاد ، إمتاعه بالفضل الذى استعلى على عاتقه وغاربه . فمن مر على بحره الهياج ونظر فى لاء بدره الوهاج . خليق بأن يكبو قلبه بأنامله . وينبو طبعه عن رسائله . الا أن يلقى اليه بالمقاليد أو يستوهبه إقليدا من الأقاليد . فيكون منسوبا اليه ومحسوبا عليه ، ونازلا فى شعبه وأحد أصحابه وحزبه ، وشرارة ناره وقراضة دينارة ، وسهل بحره وثمد غمره ، وهيهات ،

ضاق فتر عن شبر وليس التكحل فى العينين كالبكحل . خلق سخيا لامتساخيا وليس السخى من يتساخى : وأخلاق النفس تلزمها لزوم الألوان اللا بد. ان لايقدر الأبيض على السواد ولا الأسود على البياض. ولا الشجاع على الجبن ولا الجبان على الشجاعة قال أبو بكر العرزمى

يفر جبان القوم عن أم رأسه ويحمى شجاع القوم من لا يشاسبه
ويرزق معروف الجواد عدوه ويحرم معروف البخيل أقاربه
ومن لايكف الجهل عمن يوده فسوف يكف الجهل عن يوائبه

ومن أين للضباب صوب السحاب وللغراب هدى العقاب ، وكيف وقد أصبح ذكره فى مواسم الذكر أذانا وعلى معالم الشكر لسانا . فمن دافع العيان وكابر الأنس والجان واستبد بالأفك والبهتان ، كان كمن صالب بوقاحته الحجر وحاسن بقباحته القمر وهذى وهذر وتعاطى فدقر . وكان كمحموم بلسم فعفر ونادى على نفسه بالنقص فى البدو والحضر . وكان كمن قال من يعنيه ولا يشك فيه

كناطح صخرة يوما ليوهنها فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه وزاده شرفا لديه . قال « لعن الله ذا الوجهين لعن الله ذا اللسانين لعن الله كل شقار لعن الله كل قتات »

وبعد أن طوف ابن القارح فى رسالته هذه على كثير من العلماء والأدباء والشعراء والفلاسفة والمتنبين ، والزنادقة والملحدين وغير هؤلاء وهؤلاء . فتحدث اليهم وتحدث عنهم . مظهرا علم نفسه وأدب شخصه ، فى أسلوب يرجو من ورائه حمل أبى العلاء على الاعتراف بفضله والتقدير لأدبه ، ختم الرسالة بقوله

« تمت الرسالة والحمد لله وصلواته على محمد وخيرة الآل ، وما فرغت من هذه السوداء حتى ثارت بى السوداء ، وأنا أعتذر من خطل فيها أو زال ، فان الخطأ مع الاعتذار والاجتهاد والتحرى موضوع عن المخطىء ، ومن الذى يؤتى الكمال فيكمل قال عمر بن الخطاب « رحم الله امرأ أهدى الى عيوبى » وأساله أدام الله عزه تشريفى بالجواب عنها ، فان هذه الرسالة على ما بها ، قد استحسنت وكتبت عنى وسمعت منى ، وشرفتها باسمه وطرزتها بذكره — واذا جاء جواب هذه سيرتها بجلب وغيرها إن شاء الله وبه الثقة وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم

لم يكن من أبي العلاء وقد طلب منه ابن القارح عن تلك الرساله الجواب ، إلا أن يكتب رسالة الأجابة . أطول ما كتب ابن القارح ، وأعمق فيما قصد وأشمل لما أراد، بحيث تخرجه متى قرأها ، طارحا لأعجابه بنفسه قابعا فى أسمال التواضع، لامتطاولا فى حلل الخيلاء ،ولم يشأ أن يقف منه عند الرد برسالة على رسالة بل أصحبها رسالة أخرى أنشأها ابتداء ، فجاءت وحيدة عصرها فريدة دهرها متوجة كل ما سبقها من قصص عربى، بتاج العبقرية والفخار ، هى رسالة الغفران .

وبعد فأما جواب المعرى عن رسالة ابن القارح فحسبنا فيه إشارتنا اليه . وأما رسالة غفرانه فهى معنانا فيما قصدنا، واليك التعريف بها تحت العناوين التى اخترنا : —

أولا — أشخاص الرسالة ومتناولها

بدأ المعرى رسالة الغفران بقوله : —

« وصلتنى الرسالة التى بحرها بالحكم مسجور ومن قرأها لاشك مأجور ، إذ كانت تأمر بتقيل الشرع وتعيب من ترك أصلا إلى فرع . فغرقت فى أمواج بدعها الزاخرة وعجبت من اتساق عقودها الفاخرة . ومثلها من شفع وقرب عند الله ونفع، وفى قدرة ربنا جلت عظمته، أن يجعل كل حرف منها شبح نور لا يمتزج بمقال الزور، ولعله سبحانه قد نصب لسطورها المنتجية من اللهب معاريج من الفضة أو الذهب ، تعرج بها الملائكة من الارض الراكدة الى السماء الصاعدة ،بدليل الآية « اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه » وهذه الكلمة الطيبة كأنها المعنية بقوله « ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين بأذن ربها » وفى تلك السطور كلم كثير كله عند الله تقدس أثير، وقد غرس لمولانا الشيخ الجليل ان شاء الله بذلك الثناء شجر فى الجنة لذيذ اجتناء، كل شجرة منه تأخذ ما بين المشرق الى المغرب بظل غاط ، والوالدان المخلدون فى ظلال تلك الشجر قيام وقعود يقولون — والله القادر على كل شىء عزيز — « نحن وهذه الشجر صلة من الله لعلى بن منصور نخبأ له الى نفخ الصور »

ثم أخذ يصف ما يجرى فى أصول ذلك الشجر من الانهار المتدفقة بماء الحيوان وأنهار اللبن الذى لم يتغير طعمه وأنهار العسل المصفى وأنهار الخمر التى لاغول فيها ولا تأثيم، الى ما يتصل بهذه الاشياء كلها مما جرت به عادة العرب فى العاجلة وما ساقته الشرائع من وصفها فى الآجلة، تفخيما لشأنها وتحبيبا للناس فيها، حتى اذا ما انتهى من تلك الاوصاف التى أضفى تخيل أن ابن القارح وقد استحق تلك الرتبة، قد صعد به اليها فى الفردوس فاصطفى له من الندماء الادباء من اصطفى وهنا يبدأ الحديث عن أولئك الندامى فيتخيلهم أول ما يتخيل قد نزع الله ما فى صدورهم من غل اخوانا على سرر متقابلين، فثعلب قد غسل صدره من الحقد على المبرد، وسيبويه قد رحض قلبه من الضغن على الكسائى، وأبو عبيدة قد صفت طويته للاصمعى، فاذا ما عب مع اولئك من أنهار الرحيق، خطر له حديث شىء كان يسمى فى الدار الفانية «النزهة» واذا نجيب من نجب الجنة قد خلق من ياقوت ودر فيركبه ويسيح فى جو بعد عن الحر والقر، وفى هذه النزهة يتلاقى من أراد أن يتلاقى فى الجنة من أهلها المستحقين لها على حسب تقدير الناس فى الفانية، ومن غفر الله لهم لأسباب علمها منهم على غير ما كان أولئك الناس يتوقعون فيهم — وهو من أجل هذه الأسباب الغافرة سمى رسالته رسالة الغفران — وذلك كأعشى قيس الذى غفر له بقصيدته التى قصد بها إلى الرسول ﷺ لولا أن صدته عنه قريش لنهيه عن الخمر، ويا لها من دقة فى التصوير حين أردف ذلك بأن حرمت على الأعشى خمر الجنة لايثاره خمر الدنيا على المضى إلى رسول الله تأثرا بذلك النهى عنها، وكزهير بن أبى سلمى الذى غفر له بوصاته بنيه أن يتمسكوا بحبل النور الذى رآه فى منامه قد تدلى من السماء، وكعبيد بن الأبرص الذى غفر له ببيته «من يسأل الناس يحرموه: وسائل الله لايخيب» هذا البيت الذى لم يزل كلما أنشده الناس يخفف من عذاب عبيد حتى لم يبق عليه عذاب. وكعدى ابن زيد الذى غفر له أنه كان فى الجاهلية على دين المسيح. وكالنابغة بنى ذبيان الذى غفر له اقراره بالله فى جاهليته وتعظيمه بيته وحجه إياه.

أما الآخرون فكان منهم أبو ذؤيب الهذلى والنابغة الجعدى ولبيد العامرى وحسان الانصارى وجران العود النميرى ثم عوراء قيس الخمسة — الشماخ بن ضرار،

وعمرو بن أحمر وعبيد بن الحصين ، وحميد بن ثور ، وتميم بن أبي مقبل — وما كان ألبقه في أن يجري الحديث مع كل واحد من هؤلاء في الوادي الذي يطرد وتياره ويتوارم وأدبه وينبه فيه عن ناحية تكشف غامضا أو تدفع ريبا . بل ما كان ألبقه أن يتخيل تميما — وقد أنساه هول الحساب شعره — يقول لابن القارح وقد بقي له أدبه ، أن حفظك لم يبق عليك كأنك لم تشهد هول الحساب يوم المحشر ، ليكون جواب ابن القارح له ، أنا أقص عليك قصتي يوم الموقف ، وهنا يفيض الحديث في هول ذلك اليوم وما كانت حاله منه . فيذكر أنه تشفع فيه بشعره الى رضوان وزفر فلم يعد عليه بنفع . وأنه التقى بحمزة بن عبد المطلب عن طريق شعره أيضا فلم يفده بشيء . غير أنه أنفذ معه رسولا الى علي بن أبي طالب ليتوسل اليه بما كان من توبته . وأنه ذهب وتوسل بها فسأله على الشاهد عليها ، فشهد له قاضي حلب وعدولها أيامه ، وهنا يرد الحوض ويتمسح بفاطمة الزهراء ومن معها من سائر العترة أن تريحه من هول الموقف وتعجل بمصيره إلى الجنة ، فتعهد بذلك له إلى أخيها ابراهيم الذي أمره أن يتعلق بركابه ، وأوصله الى صاحب الشفاعة أبيهما محمد ﷺ صاحب الموقف فتشفع له بتوبته ويأذن له بدخول الجنة ، ولكن أنى له بعبور الصراط لولا جارية للزهراء أمرتها سيدتها أن تجيزه فأجازته ووهبتها له ، حتى اذا ما صار على باب الجنة توقف رضوان واذا إبراهيم بن الرسول قد عاد اليه فجذبه جذبة حصلته في الجنة ، وقد بقي له أدبه وحفظه ما نزفه هول موقف ولا نهكه تدقيق حساب .

وهنا يبدو له أن يطلع الى أهل النار لينظر ما هم فيه من جحيم ، فيعظم شكره على ما رأى لأهل الجنة من نعيم ، فيسير واذا هو يرى في أقصى الجنة بيتا كأنه كوخ أمة راعية ، أمامه شجرة قميئة ليست بذات ثمر ، وفيه رجل ليس عليه نور أهل الجنة ، ولم يكن ذلك الرجل الا الحطيئة ، فيعجب له ويسأله كيف رضي بهذا البيت ، فيقول والله ما وصلت اليه الا بعد هياط ومياط ، وما كان ذلك الا لصدقي في ذم نفسي ، أما قول

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه ... لا يذهب العرف بين الله والناس

فلم يغفر لى لأنى قلته ولم أعمل به ، فاذا ما سأله عن الزبرقان بن بدر قال هو رئيس فى الآخرة كما كان رئيسا فى الدنيا ، انتفع بجاهه ولم ينتفع غيره بمديحى ، وبينما يسير فى طريقه إلى الجحيم اذا هو بمدائن ليس عليها النور الشمشمانى الذى لمدائن الجنة ، فيسأل ما هذه فيجيبه بعض الملائكة هذه جنة من آمن بمحمد من العفاريت، فيعدل اليها تلمسا لبعض الأعاجيب فيها ، واذا هو بشيخ منهم استسماه فقال أنا الخيتعور أحد بنى الشيصبان الذين ليسوا من ولد ابليس إنما هم من الجن الذين كانوا يسكنون الارض قبل ولد آدم ﷺ ، فيقول وما كنيتك لأكرمك بالكنية فيقول أبو هدرش ، ثم يدور بينهم الحديث حول أشعار الجن وينتهى بأن ينشده ذلك الشيخ قصيدتين من شعره . يذكر فى أولاهما ما كان من تمرده وإيذائه قبل أن يؤمن ، ويقص فى الثانية حديث الرجم وأشياء من إيذائه وغواياته التى لم تزل دأبه حتى آمن ، فانقلب من أهل الجهاد والغزوات كما حدث فى كثير من الأبيات .

واذا ما انتهى به المطاف الى أقصى الجنة رأى هنالك الخنساء تطل على أخيها صخر فى الجحيم كالجبل الشامخ والنار تضطرم فى رأسه كما قالت فيه ، فاطلع فرأى إبليس اللعين فى السلاسل والأغلال، وهنا يبدأ الحديث مع أهل الجحيم ، فيتحدث عن إبليس ومحاولته فتنة بنى آدم فى الآخرة كما كان دأبه فى الدنيا ، وعن بشار وبدء عند إبليس لتفضيله اياه على آدم ، وعن امرىء القيس وتكذيبه نسبة الشعر المسمط اليه ، وعن عنترة وخطئه فى دعواه عدم ترك الاول للآخر من الشعر شيئا، وعن علقمة وسوء رأيه فى النساء ، وعن عمرو بن كلثوم وسناده فى معلقته ، وعن الحارث اليشكرى فيما أخذ عليه وما استحسن له ، وعن طرفة فى سولاميته والحقيقة فيمن الآمر بقتله ، وعن أوس بن حجر وتضارب الرواة فى نسبة بعض الأبيات اليه أو الى النابغة الذبيانى ، وعن أبى كبير الهذلى وضيق عطنه بالقريض لتشابه المبادىء فى كل قصائده على قلتها ، وعن الاخطل فى صفته الخمر وإقامته على النصرانية ورتوعه فى مراتع الضلال مع يزيد بن معاوية وتهكمه بشعائر الاسلام ، ثم عن مهلهل وتقصيده القصيد ، والشنفرى وقلة شكواه كأصحابه فى النار أخذا بقوله،

فى الفانية ، وللصبر إن لم ينفع الشكو أجمل ، وتأبط شرا وتكذيبه عن نفسه نكاح الغيلان وتقريره أن ماقال فى ذلك من شعر إنما كان تقولا وتخرصا على عادة الجاهليين إلى هنا ويعن له أن يعود الى محله فى الجنة ، فاذا ما عاد لقى آدم أبا البشر وساله عن نسبة الشعر اليه ، فينفيه له ويصيح فيه ، « لاحول ولا قوة الا بالله. كذبتم على خالقكم وربكم ثم على آدم أبيكم ثم على حواء أمكم وكذب بعضكم على بعض» فيتركه ضاربا فى غيطان الجنة الى جنان الحور ، واذا هو يرى أبياتا ليس لها سموق أبيات الجنة هى أبيات الرجاز فيقول تبارك العزيز الوهاب لقد صدق الحديث المروى « إن الله يحب معالى الامور ويكره سفسافها » وان الرجيز لمن سفساف القريض قصرتم أيها النفر فقصر بكم وهنا يدور بينه وبين روبة فى ذلك حجاج يطول حتى يسأل فيه العجاج المحاجزة ، فينصرف ابن القارح الى متاعه فى الجنة يعب من رحيقها بين حوره وولدانه ، فاذا ما تمنى فى خاطره أن يلحقه ماكان يلحق أخا الندام من فتور ، وقع فى ذلك على مفرش من السندس فى سرير ، واذا السرير تحمله جوار وغلمان الى محله المشيد فى دار الخلود ، وكلما مر بشجرة نضحته بالمسك وماء الورد قد خلط بالكافور ، وانقضيت ثمارها من أغصانها بقدرة الله الى فيه ، كل ذلك وأهل الجنة يتلقونه بالوان التحية والترحيب ، وآخر دعواهم — كما أخبر القرآن — أن الحمد لله رب العالمين.

الباهى يومى